جُود الرّجال من الأيدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود

ذلك أنه انتظر النوال فما نال ، وعاد غنيًّا بالآمال فقيراً بالأموال ، فالجودُ لم يتعد حدودَ اللسان ولم يبلغ إلى الأيدى ، ومردّ ذلك إلى حسب الأسود المخصىّ وضآلة نسبه وقلة سؤدده وضياع أصله ، فقد كان قدره لا يجوز الفلسين فى يد النخاس وما فى ذلك عيب لأن الفحول عاجزة حقًّا عن الجميل فكيف إذا كان المقصود هذه الخصية السود . وهو فى أغراضه يشبه القدماء ، فيلوم من لا يحفظ الجار ولا يصونُ عرضَه ، ويأخذ ذلك على سيف الدولة فيقول فيه :

رأيتكم لا يصُونُ العرضَ جارُكمُ ولا يَدر على مَرْعاكم اللبنُ
وتغضَبون على مَنْ نالَ رفدكمُ حتّى يعاقبه التنغيصُ والمننُ

يقصدُ بذلك أنه أهين بحضرة الأمير فلم يحمه ، ونال من ماله فأبطل هذا العطاء مَنًّ وأذى ، لذلك عاتبه وهجره . والشريف الرضى كمهيار الديلمى يهجوان مَن يمنع المالَ أو يعبس فى وجه السائلين أو لا يفى بوعد ، ومثلهما شعراء مدحوا فحرموا فهجوْا ، بل طلبوا أن يُرَدّ شعرُهم إليهم لأن القصد قد خاب فيهم ، وهم حين ينالون من خصومهم يرددون فيهم أوصاف الكلب ، والتيس ، والخنزير ، والبغل ، والرائحة الكريهة ، والوجه البشع ، كما فعل القدماء قبلهم ، لم تغيّرهم الحضارة ، ولم تبدّل نظرَهم إلى الأسلوب والفنّ سكنى الحواضر من بغداد ودمشق والقاهرة فهم يذمون الغدرَ ، والكذبَ ، والبخلَ ، والجبن ، وذل الجار ، والثقل والغلاظة .

فلما كان العصر الحديث تغيرت الأخلاق وتبدلت العادات وقام فى دنيا العربية شعور جديد نحو العرض والجار والجبن والبخل ، وأصبح هناك من يحمى الناس من تطاول الألسنة ، وسُنت القوانين لردع من يثلبُ الأعراض ويتناول الأعضاءَ بالذكر الداعر أو العبارة الفاحشة ؛ وانقلب التشفى والانتقام إلى مداعبة وملاسنة وتهكم وسخرية ، فقال حافظ إبراهيم فى بائع كتب صفيق الوجه :